مقدمة المؤلف :

هذا الكتاب يعد مرحلة مع طلاب المدارس العليا حيث كنت دائماً أشعر بالحاجة إلى الحديث إلى طلاب هذه المدارس فى المدن والأقاليم الفرنسية ، وبعد حصولى على جائزة نوبل فى العلوم عام ١٩٩١ م ، وجدت نفسى مدعواً للحديث فى المدارس العليا . وكان يتم ذلك بالاتصال المباشر مع الطلاب أنفسهم وأحيانا تحت مظلة التجمعات والأندية الطلابية . وبالتالى جهزت نفسى وأعددت أدوات العرض من الصور والكتب والمذكرات واخترت طريق الحديث عن حياة باحثينا : ما هى نوعية حياتهم الجامعية والعملية ؟ كيف نشارك الباحثين نجاحهم وفشلهم واختلافاتهم وأخطائهم ؟ كيف نبين للطلاب أن العلم متحرك وأن مساره ليس مستقيماً دائماً ، بل أنه ملئ بالافخاخ التى تؤدى أحياناً كثيرة إلى تعرج المسار ، وأن العلم له طرق غير متوقعة ومختصرة ؟

والباحث عند نقل رسالته العلمية لا يعتبر نبياً ولا هو يشابه العالم « البرت اينشتين » ولكنه يكون كشاف غالباً ما يتردد ويتعب .

وعند أول مدرسة قمت بزيارتها اعترانى شعور بالسعادة والفرحة ، فالقاعة مجهزة بالنظم الصوتية والمؤثرات السمعية الحديثة وبالوسائل التعليمية المختلفة ، بالإضافة إلى ذلك كنت فى مواجهة ألفين من الشباب الذين حضروا من كل الضواحى البعيدة . والحديث فى هذا الجو المفعم بالهدوء يفتح أبواب العالم . والحديث الرسمى يتبعه عادة أسئلة وأجوبة دورية فى حوار ومناقشة حقيقية . ومن الصعب على المرء أن يواجه هذا الجمع خاصة فى حضور المسئولين . ولكن شيئاً فشيئاً مع ترويد النفس سرعان ما يبدأ الحوار بالحماس وتدخل فى المعمعة ونمضى ساعة أو ساعتين من الأسئلة المتواصلة .

وأول هذه الأسئلة تكون ذات طبيعة فنية عن خصائص المطاط والملصقات وغير ذلك . ثم تأتى نظرة أوسع شمولية وتتضمن الأسئلة الآتية :

* ما هو المسار الذى يسلكه المرء لاعتناق مهنة البحث العلمى ؟
* هل يتميز العالم الباحث بمواصفات فريدة ؟
* هل لابد أن يتفوق المرء فى علم الرياضيات ؟
* ما هو حال التعليم فى مدارسنا فى العصر الحديث ؟

وبالتدريج تبدأ الأسئلة فى أخذ أبعادا أخرى أكثر عمومية منها :

* لماذا نتعلم العلوم ؟ وما هى الأفكار الممكنة ؟
* ما هو عالمنا ؟ ومن أين أتينا ؟ وإلى أين تذهب ؟

* هل هناك حياة أخرى فى الكون ؟

إنه تحدى مخيف أن تواجه هذه التساؤلات وأن تجد إجابة مناسبة لها ، إنها لمتعة أن تعالج الأسئلة أمام هذا الجمع بحثا عن الحقيقة .

وأثناء حديثى ، كنت اشرح بصدق ضعف النظام التعليمى الفرنسى وتفاعلاته . وناشدت من أجل البحث عن علاقة جديدة بين الطلاب والمدرسين . هناك كثير من الذكريات المتراكمة عن زياراتى للمدارس العليا أو المدارس الفنية الصغيرة . وأحياناً عند زيارة المدارس الصغيرة لايوجد بها اتفاقيات تكفى لإلقاء أى بيان عملى ، ولهذا السبب فقد تحدثت أمام جمع من الطلاب فى ورشة الماكينات أمام الفنيين الذين اصطفوا بزيهم الأزرق .

وكنت أواصل محاضراتى فى مسارح المدارس مما يجعل الحديث حماسياً . لقد تراكمت ذكريات الحصاد الفكرى ، وفى النهاية ، وجب التوقف فقد كنت مثقلاً ومتعباً بسبب آلام القلب اضطرتنى إلى تأجيل الدعوات المتتالية لمدة عام كامل . كنت مضطراً أن استجيب لأكثر من ١٥٠ دعوة إلى المدارس العليا المتميزة بالنشاط والحماس . وكان من المستحيل أن أغلق هذه الصفحة السعيدة فى حياتى دون محاولة الأمساك بهذه الذكريات وتسجيلها .

وجاءت فكرة تسجيل يومياتى فى كتاب ، وكانت كثير من المواد متاحة على شكل تسجيلات وشرائط وصور فوتوغرافية وأفلام ڤيديو ، تركزت على المتحدث وأهملت القاعدة المستحقة من الحضور .

من حسن حظى أن صاحبتى صديقى چاك بادوز الذى يعمل فى المعهد العالى للفيزياء والكيمياء بباريس ، حيث كان شغوفا بهذه الرحلات ومناقشة نتائجها . وقد بذل جهوداً مضنية لجمع وترتيب المواد بعناية . وكنت اتفق معه فى وجهات النظر وعملنا سوياً بيسر وبدون متاعب .

هذا الكتاب هو ذكريات فقط . فالذاكرة ذاتها ما هى إلا جسم رخو ، لايمكن الحفاظ على الأسئلة الفردية التى تشكل أكثر الأجزاء أهمية بدون تسجيلها . لابد من إعادة صياغتها لتوائم موضوعاً خاصاً أعطى لمستمعين مختلفين .

بلا شك ، فى هذه العملية فقدنا كثيراً من طبيعة الحوار التلقائى ولكننا نرغب أن نمسك « بشرارة » حب الفضول والحماس الذى ملأ نفوسنا خلال زياراتنا للمدارس.

المؤلف

بيير ج. دي جين

obeikandl.com